

تاريخ الكتابة عامة، والعربية منها خاصة

للباحث اللغوي الأستاذ
صلاح الدين الزعبلوي

1 - تاريخ الكتابة وتطورها في القرون الخالية:

بدأ الإنسان يعتبر عما يعتمل في نفسه كتابةً في العصور الغابرة بعلامات تصويرية كانت أولى درجات السلم في فن الكتابة. فإذا عُذنا إلى كتاب (العصور القديمة) للدكتور براستد (جايمس هنري) أستاذ تاريخ الشرق ورئيس دائرة اللغات والعلوم الشرقية في جامعة شيكاغو، وقد قام بترجمة الكتاب إلى العربية الأستاذ داود قربان، أحد أساتذة الجامعة الأمريكية في بيروت، أقول إذا عُذنا إلى كتاب الدكتور براستد هذا، وجدنا أن أهل (الاسكا) مثلاً كانوا يكتبون رسائلهم صوراً رمزية على قطع من الخشب فتؤدى معناها الذي يريدون. وكذلك كان هنود أمريكا، فقد سجلوا آثارهم رموزاً وصوراً، وهكذا فعل ملوك وادي النيل قبل ستة آلاف سنة. وقد أُسميت هذه الكتابة بالكتابة التصويرية كلما دلت الصورة فيها على المادة، كما سُميت بالكتابة الرمزية كلما رمزت بالصورة إلى معنى من المعاني.

واستمرت الكتابة على هذه الحال طويلاً إلى أن انتقلت من مرحلتها التصويرية الرمزية إلى المرحلة الصوتية حين تطور الإنسان فحاول أن ينطق باللفظ الذي يدل على ما تعنيه الصورة. فصورة الرغبة مثلاً قد أصبحت تُقرأ باللفظ الذي يدل على الرغبة.

فإذا عُذنا إلى قدماء سكان وادي النيل نجد أنهم دلّوا بصورة (الققة) على اسمها، فإذا رسموها عَنَوْا بذلك أن ينطقوا بهذا اللفظ وهو (نب)، فكان هذا اللفظ هو المقطع الهجائي في أي كلمة وقع فيها المقطع. وهكذا دلّوا بصورة (الأرنب) على اللفظ الذي سُمي به الأرنب وهو

(وم)، فغدا هذا المقطع الهجائي دالاً على اللفظ المذكور في أي كلمة وقع المقطع، وبذلك أصبحت لديهم طائفة كبيرة من الصور يدلّ كلّ منها على مقطع من الهجاء. وقد تنامي عدد هذه الصور حتى بلغ المئات، وتألّفت كل كلمة من عدة صور، فاستطاع الإنسان بهذا أن يستغني باسم الشيء عن رسمه أو الرمز إليه.

ويُفهم مما تقدّم شرحه أن المقطع هو الهجاء الواحد من الكلمة، وقد جاء على نوعين. أمّا الأول فكان يتألّف من حرف متحرك لا يليه ساكن فيُلَفّظ كلّ حرف بحركته مُستقلاً عن الحرف الذي يليه. وأمّا الثاني فيتألّف من حرف متحرك يليه ساكن.

وهكذا جاء المقطع في الكلمة حرفاً متحركاً مستقلاً أو هجاءً مؤلّفاً من حرفين أولهما متحرك وثانيهما ساكن.

وفي مرحلة تالية انتقلت الكتابة من مرحلة المقاطع الهجائية إلى مرحلة الحروف، فأضحى لدى قدماء سكان وادي النيل مثلاً جملةً من العلامات تدلّ كل علامة منها على حرف فقط، وقد انتهوا بحروف هجائهم إلى أربعة وعشرين حرفاً، وهي الحروف الهيروغليفية، وقد خُصّصَت بالكتابات المقدّسة وكان إلى جانبها الحروف الهيرواطيقية، التي خُصّصَت بها دواوين الدولة، وكان للعمامة حروف سُمّيت بالديموطيقية، وهي أيسر هذه الحروف كتابة. ويعود تاريخ اهتداء قدماء سكان وادي النيل إلى استعمال الحروف، كما تدلّ الآثار، إلى القرن الخامس قبل الميلاد، وقد سبقهم إلى ذلك الفينيقيون، إذ دلّت الآثار على أنهم عرفوا الأبجدية منذ القرن الخامس عشر قبل الميلاد. وذكر ذلك الباحث الكرواتي (الكسندر شتيبنشفتش في مؤلّفه تاريخ الكتاب). وقد ترجم هذا المؤلّف إلى الألبانية الأستاذ فاضل بوياري، ثم ترجمه من الألبانية إلى العربية الدكتور محمد م. أرناؤوط.

2 - تاريخ الكتاب:

جاء في الفصل الأول من هذا الكتاب أنه عُثِر في (أوغاريت) في رأس شمرا في اللانقية على رُقْم طينية تدلّ على أنّ الفينيقيين أول من رمز الأصوات بالحروف فاخترعوا الأبجدية في القرن الخامس عشر قبل الميلاد.

أقول إذا كانت أول كتابة تصويرية ومقطعية قد وجدت في سومر العربية شرقاً فإن أول تحول للكتابة من المقطعية إلى الحرفية، بالاهتداء إلى الأبجدية، قد تمّ على يد العرب الفينيقيين غرباً، ثم عمّت العالم بأسره، عن طريقهم. فقد اهتدى العرب الفنيقيون إلى أول أبجدية صوتية في العالم كتبت بالخط المسماري، ثم توصل أشقاؤهم في جيل في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، بتطويرها وكتابتها بالعلامات، إلى الأبجدية الفينيقية التي عمّت العالم، فكانت أمّ الأبجديات التي شاعت في عالمنا أجمع.

وهكذا فإن العالم كله يدين بالأبجدية إلى العقل العربي السوري. وكان السومريون قد دوّنوا مشاعرهم وأدبهم الوجداني وبعض مناحي فكرهم المجرد بكتابتهم الرمزية التي كانت تعد رموزها نحو ألف رمز ثم تطوّرت فتحوّلت إلى نحو ستمائة رمز.

وإذا اتخذنا اللغة المكتوبة الدليل المادي على تحديد هوية الشعب وجدنا أن السومريين والأكاديين والعيلاميين والآشوريين والأموريين والآراميين والفينيقيين والكنعانيين، شعب واحد هو الشعب العربي، وكانت رقعة الوطن العربي تمتد من الخليج العربي إلى البحر المتوسط.

ولعلّ من الإنصاف أن ننوّه ببعض أبطال العرب السوريين كسرجون الأكادي الكبير. كان سرجون الكبير هذا من أبناء الشعب العاديين، وكان إلى ذلك ساقى الملك الخاص. وقد كان يشعر بتماييز طبقات الشعب الأكادي بين أمراء إقطاعيين وكهنة وقضاة هياكل ومسؤولين كبار من الموظفين ورجال حاشية ملكية إلى جانب العبيد. وقد كان يسمع الكثير من شكاوى الفلاحين والعمال والصنّاع. ولم يشغله عن ذلك ما كان يشهده من ولائم الملك الصاخبة وانغماسه في اللهو والملاذ فيفكر فيما كان يمكن أن يؤول إليه ذلك من إهمال لمصالح الشعب، وشؤون حياته عامة.

وإذا عرفنا ما كان يتميّز به سرجون هذا من سموّ في وجدانه وعزم في إرادته وقوة في شكيمته لم نفجأ إذا رأيناه يوماً على رأس عشرات الألوف من الفلاحين والعمال والصنّاع وفرق من الجيش ثائرة، يقودهم ويزحف بهم إلى القصر الملكي ليخلع ملكه العاجز، ويقيم نفسه ملكاً ليبدأ في الحكم عهداً جديداً يتميّز بالإصلاح والعدل والمساواة والتّقى بالنفس، فيؤلّف جيشاً

قومياً مؤمناً يتذرع بالحرية والعدالة يصونهما لأفراد الشعب فيحرر الفلاحين والعمال والصناع مما كان السادة الإقطاعيون يخصون أنفسهم به من (امتيازات) جائزة تتجاوز كل معقول.

وهذا ما دعا المؤرخين يفتنون في إحاطة سرجون هذا باللقاب فخمة كسرجون الأعظم وشارلمان أسية الغربية وسوى ذلك.

وهكذا مضى سرجون في تحرير الفلاحين والعمال والصناع من الامتيازات التي كان يباهي بها السادة من الكهنة والإقطاعيين وذلك عام ثلاثمائة وألفين قبل الميلاد.

ومن أبطال العرب السوريين الأموريين في القرن الثاني عشر قبل الميلاد حمورابي. ولاتعود عبقريته إلى قدرته العسكرية وحسب، بل إلى فكره المتعمق وتشريعه المتألق، فقد خلف في بابل شريعة تضمنت تنظيماً دقيقاً لمبادئ المعاملات المالية والتجارية إلى جانب المواد المتعلقة بالزراعة ووفاء الديون وأحوال الطلاق. وقد تألفت من ثلاثة آلاف سطر من الكتابة المسمارية البابلية باللغة الأكادية التي كان يتكلمها البابليون ويدوتون بها شرائعهم وأثارهم.

أما لفظ (السامية) فبدعة يهودية حديثة، وقد أكد ذلك الدكتور أحمد داود في مقال له في صحيفة الثورة، في الخامس من شهر نيسان سنة تسعين وتسعمائة وألف، إذ قال إن استخدام علم اللغات استخداماً علمياً موضوعياً يبين لنا ثبوت الوحدة اللغوية العربية لجميع أقوام الوطن العربي القديم. وهومادلٌ عليه أيضاً علم الكتابات القديمة حين أكد وحدة الكتابة عندهم، إذ تطوّرت من التصويرية إلى المسمارية المقطعية فالمسمارية الأبجدية ثم إلى الأبجدية الحرفية التي عمّت العالم القديم منذ ذلك الحين وحتى اليوم.

وتؤكد مُعطيات القراءات الأثرية جميعها وحدة الحضارة للشعب العربي في أرجاء الأرض العربية كلها، على اختلاف تسمياتها، سومرية أو أكادية أو بابلية أو آشورية أو فينيقية أو مصرية.

وقد جاء للأستاذ حسان عزت في مقال كتبه في صحيفة الثورة يوم الثلاثين من شهر أيار عام تسعة وثمانين وتسعمائة وألف أن اللغة المصرية القديمة لغة عربية وأنه يمكن إرجاع كتاب (الموتى) إلى اللغة العربية، وأن علي علماء العربية إنجاز ذلك.

وقد جاء في مقال للدكتور على فهمي خشيم، عميد مركز اللغات الليبي، في العدد (57) من مجلة الشؤون العربية أن اللغة المصرية القديمة أو الفرعونية، لا تمت إلى اللغة العربية وحسب، بل هي اللغة العربية القديمة. وهو مالم يتطرق إليه المستشرقون الذين وقعوا في الخلط الكثير لأنهم اعتمدوا المنهج التوراتي إذ كان معظمهم من اليهود. والخطأ الذي وقعوا فيه أنهم قسموا اللغات إلى سامية وحامية كما ذهب إليه المستشرق شولتس، وفصلوا بين العربية والمصرية الفرعونية القديمة. وقد ذهب إلى ذلك الكاتب لويس عوض في كتابه (مقدمة في فقه اللغة العربية) وقد صدر عام ثمانين وتسعمائة وألف. ويتحذى الدكتور خشيم الدكتور لويس عوض أن يأتي بكلمة مصرية واحدة لوجود لها في العربية. ويرد ذلك فيقول أريد أن أقوم بتحدّي علمي بإرجاع كل كلمات الكتاب المصري (كتاب الموتى) إلى اللغة العربية. ويشير الدكتور خشيم إلى قلة العارفين باللغة العربية القديمة فيذكر أن آثار (إيبلا) أي (عبل) التي كشفت في أوائل السبعينيات لم يكن بين العرب من يستطيع فك رموزها، وهي لغة عربية واضحة ترجع إلى ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد.

ومن أجل فهم اللغة المصرية القديمة يرى الباحث خشيم أن نرجع إلى المعاجم العربية القديمة فنعود باللغة المصرية إلى اللغة العربية المعاصرة خلال سنوات معدودة.

وهكذا بذل الدكتور خشيم مافي وسعه ليبرهن على صحة نظرية يطرحها في علاقة العربية بالمصرية القديمة، وعلى بطلان نظرية شولتس القائلة بتصنيف اللغات إلى سامية وحامية وأردو أوربية. وقد أورد سبلاً من الكلمات ذات الأصول المشتركة في العربية والمصرية القديمة.

هذا وقد خلص الدكتور أحمد داود في مقاله السابق، في صحيفة الثورة، في الخامس من شهر نيسان سنة تسعين وتسعمائة وألف، إلى أن الوجود العربي على الأرض العربية سابق

التعريب العدد الثاني عشر . كانون الأول / ديسمبر 1996

لوجود أي شعب آخر. وأن العرب قد أبدعوا على هذه الأرض أولى حضارات العالم، ومنها انتقلت إلى الاصقاع الأخرى للعالم القديم.

وتحدث عن (السامية) إزاء الوجود العربي فقال إن الوجود العربي على أرجاء الوطن العربي موغل في القدم آلاف السنين قبل اختراع الكتابة. وهو يمتد إلى عشرة آلاف عام على الأقل قبل الحضارة والزراعة المستقرة.

أما لفظ (السامية) فلم يعثر عليه في أي من المكتشفات الأثرية، والمصدر الوحيد الذي تحدث عن (سام) وأبنائه وأحفاده هو التوراة وما إليها. وقد نقل مدونو التوراة ذلك مما كان يتناقله سكان شبه جزيرة العرب مشافهة أو كتابة من أن زمن سام بن نوح إنما يعود إلى حادثة الطوفان التي وقعت قبل ثلاثة آلاف عام من الميلاد. وقد سبق وجود العرب هذا التاريخ في الألف التاسع والثامن والسابع والسادس والخامس والرابع قبل الميلاد، أي سبق وجودهم وجود سام آلاف السنين، فكيف يمكن أن يُنسبوا إلى (السامية)؟ فسام وأبناؤه وأحفاده من العرب وليس العكس، فالساميون فرع من فروع العروبة.

3 - الكتابة عند العرب السومريين

ولنعد بعد هذا الاستطراد إلى صلب موضوعنا وهو تاريخ الكتابة. فقد جاء في مقال طريف يتصل بمضمونه بتاريخ الكتابة العربية للدكتور جورج كنعان في عدد اليوم الرابع من شهر كانون الثاني عام تسعين وتسعمائة وألف لصحيفة الثورة، أقول قد جاء في هذا المقال مأموداه أن التاريخ إنما يبدأ بظهور نظام صالح للكتابة. وظهور الكتابة المسمارية في سومر قد تم نظاماً تاماً مع انبلاج فجر التاريخ، ويعني هذا أن وراء هذا النظام تاريخاً طويلاً من التطور المستمر. ذلك أن اختراع الكتابة من أجل التعبير ونقل المعرفة وخزن العلم وضبط الحساب إنما تم في مجتمعات مضت بعيداً في دروب الحضار والتمدن فانتظمت في دولة أو دول غدا لها علاقات اجتماعية وتجارية.

وقد شعر السومري العربي مع تقدّمه في مدارج المعرفة بالحاجة إلى ما يساعد ذاكرته على حفظ تلك المعارف والمعلومات التي اهتمت إليها ووعاها فكره وإلى نقل مايعتمل في

صدره من مشاعر ويصطخب في عقله من أفكار، فكانت له كتابة تصويرية بدائية مالبثت أن تطوّرت إلى رمزية فتخطيطية أشبه ما تكون علاماتها بالمسمار، ومن هنا كانت تسميتها بالمسمارية. وقد تمّ اعتداء السومريين إلى الكتابة التصويرية في الألف الخامسة قبل الميلاد. وقد تطوّرت إلى الكتابة الصوتية في الألف الثالثة ق.م. ويُعد السومريون في ابتكارهم للكتابة وسبقهم في ذلك مُفجّري العصور التاريخية.

قد كانت الكتابة السومرية وتطوّرها أعظم مالمسومرين من فضل على الحضارة العالمية. فقد استطاع الإنسان، أول مرة، أن يسجّل وقائع دائمة لأعماله وآماله ورغباته وأحكامه ومعتقداته، كما استطاع أن يدخّر ماتكدّس من معارفه.

وهكذا كان لاختراع الكتابة في سومر شأن أيّ شأن في تطوّر المجتمعات الإنسانية.

4 - الكتابة عند العرب الكنعانيين

ثم تطوّرت الكتابة فاهتدى الكنعانيون في سورية الغربية إلى استخدام الكتابة الصوتية المقطعية فأصبح الرمز يمثل صوتاً معيناً. وكان الكنعانيون أول من جرّد الصور التي كانت تستعمل لكتابة المقطع أو الكلمة فاستعاضوا عنها برموز يمثل كلّ منها وحدة صوتية، أي أنهم قاموا بتحليل نبرات الصوت إلى مركّبات بسيطة تمثّلها رموزٌ سُمّيت فيما بعد بالحروف الهجائية. وكان للكنعانيين السبق في ذلك كما لهم الفضل في أنهم كانوا الرّواد في إذاعة ونشر الحروف الأبجدية في الشرق ابتداءً من الدول المجاورة، وفي الغرب ابتداءً من اليونان.

وقد حدّ الكنعانيون حروفهم الهجائية باثنين وعشرين حرفاً فكانوا أول قوم نقلوا الكتابة التصويرية إلى الأبجدية ومن المقطع إلى الحرف فحقّقوا بذلك انعطافاً تاريخياً منذ أربعة آلاف سنة.

أقول إن ابتداء الحروف هذه قد كان أسمى فعل تجريدي قام به العقل وأسهم فيه العرب السوريون في مضمار الحضارة. إذ ليس بدعاً أن تعدّ الكتابة الأساس الذي قام عليه صرح الحضارة لأنها كنّت الوسيلة إلى تسجيل المعرفة ونقلها، كما كانت العنصر الحضاري الوحيد

الذي لم تقيد حدود الزمان والمكان، فجمع العناصر الحضارية تفعل فيها البيئة والتاريخ، المكان والزمان إلا الكتابة. ولذا فقد عايشت الأبجدية جمع التطورات الحضارية، منذ أكثر من أربعة آلاف سنة، تحت أشكال متعددة، في عالم يعيد النظر في كل مناهجه. وقد قال العالم موريس دونان في كتابه (أبجدية جيبيل): "الأبجدية أثمن عطاء حضاري قدّمه الكنعانيون إلى البشرية، وهامي ذي باقية على ما اخترعت بعد أربعة آلاف سنة".

ومن الطبيعي أن تنتشر الكتابة الكنعانية هذه في رقعة تكون من السعة والعمق بمقدار ما كان للحضارة الكنعانية من قوة واتساع وأثر في الشعوب.

وقد تم انتقال هذه الحروف فعلاً إلى اليونان غرباً، في القرن الثامن قبل الميلاد، فنقلها الإغريق إلى أوربة برمتها، كما تم انتقالها إلى الآراميين شرقاً، في القرن الثاني عشر قبل الميلاد، فأشاعوها بين سائر العرب والشعوب القديمة كالفرس.

5 - الكتابة في المصادر العربية القديمة

ذهب كثير من المصادر العربية القديمة إلى أن (الكتابة) التي كتب بها العرب إنما هي (توقيف) من الله، علمها آدم عليه السلام فكتبت بها الكتب وكان الكتاب الأول من نصيب إسماعيل عليه السلام. على أن هذا الرأي، كما جاء في كتاب (قصة الكتابة العربية) للأستاذ إبراهيم جمعة، لا يقوم على أساس من العلم أو سند من التاريخ الصحيح. وقد اعتنقه العرب وأشاعوه لتأييد النظرية القائلة بأن إسماعيل عليه السلام أبا العرب المستعربة التي منها قریش، هو أول من تكلم العربية وتعلمها من العرب المتعربة وأخذها عنه بنوه.

ولم تذهب هذه الأقاويل على المؤرخ الاجتماعي ابن خلدون (ت 808 هـ) بل حكم بغنائتها وأنها أدنى إلى التخرص والتكهن والرجم بالغيب، إذ قال في مقدمته، مقدمة كتابه (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر): إن الخط من جملة الصنائع المدنية المعاشية فهي على ذلك ضرورة اجتماعية اصططنعها الإنسان ورمز بها للكلمات المسموعة؛ والكتابة على ما هو معروف هي المرتبة الثانية من مراتب الدلالة اللغوية فهي تابعة في نموها وتطورها شأن كثير من الصناعات المعاشية لتقدم العمران.

يتحدث ابن خلدون عن الكتابة العربية فيرى أن الخط العربي قد بلغ في دولة التبابعة في اليمن مبلغاً من الإحكام والجودة يناسب مابلغته دولة التبابعة من الحضارة والترف. وهو يذهب إلى أن الخط قد انتقل من اليمن إلى الحيرة التي كان يحكمها المناذرة نسباً التبابعة اليمينيون في العصبية. ويرد ابن خلدون فيقول: "ومن الحيرة لُقنه أهل الطائف وقريش"، فيقع بذلك في الخطأ الذي وقع فيه كثيرون. فهو يرى أن الخط الذي انتهى إلى قریش فكتبت به في الإسلام قد تصاعد إلى الحيرة من اليمن وانحدر من الحيرة إلى الحجاز، أي أنه يرى باختصار أن الأصل في الخط العربي الحجازي الذي نكتب به هو خط التبابعة المشهور بالمسند الحميري.

أ - الكتابة العربية والمؤرخ البلاذري

تحدث المؤرخ البلاذري أحمد بن يحيى بن جابر صاحب كتاب (فتوح البلدان) المتوفى (279 هـ) عن الكتابة فروى عن عباس بن هشام بن محمد بن السائب الكليبي عن جده، وعن الشرقي القطامي، أن ثلاثة من (طي) اجتمعوا في "بقة" هم مرامر بن مرة، وأسلم بن سدره، وعامر بن جذرة، وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية فتعلم منهم قوم من أهل الأنبار ثم تعلم من هؤلاء نفر من أهل الحيرة.. ويقول مامعناه: وكان بشر بن عبد الملك الكندي أخو "الأكيدر" صاحب "دومة الحنذل" يأتي الحيرة. فتعلم الخط من أهلها.. فيسأله سفيان بن أمية بن عبد شمس، وأبو قيس بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب أن يعلمهما الخط فيعلمهما الهجاء والخط.. ثم يأتي بشر وأبو قيس الطائف فيعلمان الخط نفرأ من أهلها..

ثم يقول مامعناه إن بشرأ هذا قد مضى إلى ديار مصر فتعلم الخط منه نفر من أهلها، ثم رحل إلى الشام فعلم الخط فيها. وهكذا عرّف الخط بفضل بشر وهؤلاء الطائيين الثلاثة، عددًا لأخصى من أهل العراق والحجاز وديار مصر والشام.

ولكن ماالرأي فيما ذهب إليه البلاذري وهو يحاول أن يفسر كيف انتهت الكتابة من الحيرة إلى الحجاز؟ نقول في الجواب عن ذلك إننا لاثأبى أن تصبح الحيرة مركزاً من مراكز تعليم الخط العربي في حقبة من الزمن لأن خط العرب الشماليين قد انتهى إليها في عهد من العهود في طريق رحلته من (ديار النبط) موطنه الأول إلى الحجاز ماراً بدومة الجندل والعراق

الأوسط، ويؤكد الأستاذ جمعة ذلك في كتابه. ولا بدع أن تكون الأنبار والحيرة قد تلقفتا هذا الخط من بعض جهات الشام، ثم قامنا بمهمة الوسيط فأزجناه إلى الحجاز، إلى المدينة ومكة بطريق دومة الجندل، وهذه، أي دومة الجندل، في طريق الارتحال يومئذ من الفرات الأوسط إلى الحجاز.

ولابد أن نتساءل هنا لماذا يناط الخط العربي بشخص بشر بن عبد الملك الكندي، كما يقول الأستاذ جمعة، بشر هذا الذي صورته الرواية رحالة طاف أرجاء شبه الجزيرة العربية ليعلم الخط، على حين أنه عاش في دماثة ودعة ورفاهية يتقلب بين أعطاف النعيم.

وقد بدا الأستاذ جمعة محكم الرأي شاقب النظر بعيد الغور حين يقول إن انتقال ظاهرة كظاهرة الكتابة هذه أمر يكون بطبيعته بطيئاً يصعب أن نتميز فيه أشخاص الناقلين. ويردف فيقول: على أننا نستطيع أن نستفيد من الرواية شيئاً آخر هاماً. فعلى فرض أن شخصية بشر هذه قد وجدت فعلاً وكلفت نفسها هذه المهمة العسيرة فلا بد أن تكون قد عاصرت - سفيان وحرباً - ولدي أمية. ومعنى ذلك أن الكتابة العربية لابد أن تكون قد رحلت رحلتها إلى الحجاز في خواتيم القرن الخامس الميلادي.

ولابد أن نلاحظ هنا السجع في أسماء الطائيين الثلاثة الذين عزا البلاذري إليهم قياس هجاء العربية على هجاء السريانية، رواية عن عباس بن هشام بن محمد الكلبي، عن جدّه، وعن الشرقي القطامي، وهم مرامر بن مرة، وأسلم بن سدره، وعامر بن جدرة، فمجيء الرواية على السجع في الأسماء، ضماناً لحسن وقعها على الأسماع يثير الشك في صحة الرواية نفسها، وإلا فليس يسيراً أن يكلف مثل هذه المهمة الحضارية الشاقة أناسٌ لمحض الرغبة في توفير خط يكتب به العرب.

ب - الكتابة العربية وابن النديم

يتحدث ابن النديم صاحب الفهرست عن الكتابة العربية فلا يذكر اسم بشر بن عبد الملك في روايته بل يسمي مكانه شخصاً آخر هو أبو قيس بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، ويضيف إليه سم حرب بن أمية، وينسب إليهما نقل الكتابة من الحيرة إلى الحجاز. ولاتفسير لمثل هذا

التضارب في الأسماء إلا القول بأن انتقال الكتابة إنما كان نتيجة لرحلة الأعراب بين شبه جزيرة العرب ووادي الفرات، ذهاباً وإياباً ، بقصد التجارة.

ولابد أن نقف هنا عند ابن النديم ونطيل الوقوف، ذلك أن ابن النديم هذا صاحب أول موسوعة علمية عربية إسلامية تضم أسماء الكتب والمؤلفين، فهو الرائد الأول في الفهرسة للثقافة العربية الإسلامية.

وابن النديم هذا هو أبو الفرج محمد بن إسحق النديم، وقد دُعي بالنديم أيضاً. وقد تحدث عنه وكتب فيه كثير من الباحثين، كما تحدث عنه الأستاذ عبد الحميد حمودة في مقال طريف في مجلة الناشر العربي، في العدد الثامن عام سبعة وثمانين وتسعمائة وألف.

ولد النديم على أرجح الروايات سنة (325 هـ) ببغداد وابتدأ تأليف كتابه سنة (377 هـ). وقد جاء في تاريخ المقرئ أن وفاته كانت سنة (380 هـ)، وفي مصادر أخرى أنها في أواخر القرن الرابع الهجري.

تخرج ابن النديم في العلم على شيوخ عمالقة كآبي سعيد السيرافي وأبي الفرج الاصفهاني والمرزباني وسواهم، وقد تبوأ كتابه الفهرست مكانة مرموقة في تاريخ الثقافة العربية الإسلامية. وقد ضم الكتاب مقدمات دلت على براعة المؤلف وعلو كعبه في هذه الثقافة، وواكبت هذه المقدمات أحكام كشفت عن سعة اطلاعه على علوم عصره وتضلعه منها. فاستطاع بذلك أن يجعل من كتابه الفهرست موسوعة للحضارة العربية الإسلامية الوسيطة. عُرف كتاب الفهرست في أوربة بطبع مخطوطة له قادمة من مصر أو القسطنطينية، وقد تم ذلك في (لايبزيغ) في ألمانيا، منذ أكثر من مائة عام، بفضل المستشرق الألماني (غوستاف فلوجل) الذي أمضى خمسة وعشرين عاماً في إعداد مخطوطة الكتاب. وجاء الكتاب المطبوع في مجلد صفحته (260) صفحة من القطع الكبير. لكنه بدا عند التحقيق أنه لم يكن كاملاً، إذ فاته صفحات عديدة تتحدث عن كثير من العلماء.

وقد قام الباحث الإيراني الأستاذ رضا تجدد بتحقيق الفهرست وإصداره بالعربية في طهران سنة (1391 هـ)، أي منذ نحو خمسة وعشرين عاماً.

على أن أكمل طبعة طُبِعَ به الفهرست كانت للعالم المغربي الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي الذي تُوفي منذ نحو عقدين من السنين، فقد جمع معظم مخطوطات الكتاب في العالم وأعاد تحقيقه فجاء أفضل تحقيق علمي، ويبدو أنه حصل على أجزاء من الكتاب لم يظفر بها الباحث الإيراني، وقد بات الكتاب المخطوط المحقق هذا من ممتلكات الدولة التركية، ويُرجى أن يغدو محل اهتمامها فتخرج به إلى النور خدمة للتراث العربي الإسلامي، وتأكيداً لجلاء غامضه وإظهار مكنونه وإيداء سرّه وإيضاح منهاجه. قسم ابن النديم كتابه إلى عشرة موضوعات خصّ كل موضوع منها بمقالة فتحدثت المقالة الأولى عن القرآن والعلوم القرآنية وتحدثت الثانية عن النحو والصرف

والثالثة عن التاريخ مما يتصل بالإخباريين والرواة والسير والأنساب

والرابعة عن الشعر والشعراء

والخامسة عن علم الكلام والمتكلمين

والسادسة عن الفقه والفقهاء والمحدثين

والسابعة عن الفلسفة والعلوم القديمة

والثامنة عن السحر والخرافة والعزائم والشعوذة

والتاسعة عن المذاهب والعقائد

والعاشرة عن الكيمياء والصنائع

وهكذا استطاع ابن النديم أن يجمع في كتابه ما أحاط به اطلاعه من مؤلفات في مختلف العلوم إسلامية أو دنيوية، سواء أجازت وشايحت مذهب أو عقيدته أم لم تُجار وتشايح، على أساس من التوثيق والتنظيم المنهجي، ذاكراً اسم المؤلف في كل فرع من فروع العلم، والكتب التي قام بتأليفها.

ويقول ابن النديم في الفهرست: "هذا فهرست كتب جميع الأمم من العرب والعجم، الموجود منها بلغة العرب وقلمها في أصناف العلوم وأخبار مصنفاتها وطبقات مؤلفيها وأنسابهم ومواليدهم ومبلغ أعمارهم".

وقد أصاب الاستاذ حمودة وجه الرأي حين أشار إلى أنه إذا كانت (الببليوغرافية) الحديثة، التي عَنُوا بها (التقويم المنهجي للعلوم وتصنيف الكتب بحسب هذا التقويم) وكان رائدها الكاتب الأمريكي (ديوي)، في النصف الثاني من القرن الماضي، أقول إذا كانت هذه (الببليوغرافية) قد تحققت في النصف الثاني من القرن الماضي، فإن ابن النديم قد حققها في كتابه منذ ألف سنة، وهذا ما يحاول أن يتناساه أو يتجاهله كثير من الباحثين.

فالواقع أن ابن النديم، كما قال حمودة، قد استطاع أن يطبق علم (الببليوغرافية)، قبل ألف سنة، تطبيقاً فذاً، حين أحكم وصف المؤلفات ومقاييسها، وأحصى عدد صفحاتها وعرف لوحاتها ملونة وغير ملونة، واستطرد ففصل في ذكر موضوعاتها. فانظر إليه يقول في حديثه عن أبي الحسن على المصري "وله من الكتب كتاب المبسوط في الفقه ويحتوي هذا الكتاب كتاب الطهارة وكتاب الصلاة وكتاب الزكاة...!"

ولا يكتفي ابن النديم بأن يعرض في كتابه لقدماء المؤلفين بل ضمته مؤلفات معاصرة كذكره مؤلفات المرزباني الذي وُلِدَ سنة (297) هـ، وقد كان ما يزال على قيد الحياة.

هذا وقد أصبحت (الببليوغرافية) محل اهتمام العالم جميعاً واتخذت أساساً لجمع المعلومات عن الإنتاج الفكري الإنساني. وعقدت المؤتمرات والأبحاث والدراسات حول (الضبط الببليوغرافي العالمي) قام بها الاتحاد العالمي لجمعيات المكتبات (إفلا - IFLA) وأحيلت إلى منظمة اليونسكو عام 1973 لتعمل على إبرازه إلى حيز الوجود وقد أقامت اليونسكو فعلاً مكتباً خاصاً بالضبط الببليوغرافي العالمي عام 1974.

ولابد أخيراً من التنبيه على الحلقة الدراسية العربية التي عقدت في دمشق عام 1971 حول (الخدمات المكتبية والوراقة - أي الببليوغرافية - والتوثيق والمخطوطات العربية). وقد أقام هذه الحلقة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في جامعة الدول العربية بالتعاون مع

الحكومة السورية، وكان من توصياتها، كما جاء في نشرة الحلقة المطبوعة بمطبعة جامعة دمشق 1972:

1 - أن تقوم الدول العربية التي لم تشرع بعد بإصدار ببليوغرافية قومية بالمبادرة إلى إصدارها، وأن تقوم بهذه المهمة فيها المكتبة المسؤولة عن الإيداع، سواء أكانت دار الكتب الوطنية أم غيرها.

2 - توصي الحلقة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بالعمل على إنشاء المركز الببليوغرافي العربي، ليكون مركز تسجيل للمصنفات العربية.

3 - نظراً لأهمية الببليوغرافية المتخصصة الموضوعية للبحث العلمي، توصي اللجنة بأن تهتم المكتبات والمراكز والهيئات العلمية في الوطن العربي بإصدار الببليوغرافية الموضوعية في ميدان تخصصها.

وقد بدا الأستاذ عبد العزيز محمد النهاري باحثاً محققاً، في مقاله الطريف الذي جعل عنوانه (الببليوغرافية علم وفن).

مراجع البحث

- 1 - العصور القديمة للدكتور براستد (جايمس هنري)، ترجمة الأستاذ داود قربان. طُبع في المطبعة الأمريكية ببيروت سنة 1936.
- 2 - تاريخ الكتاب للباحث الكرواتي (الكسندر شيببشفتش) ترجمة الأستاذ فاضل بوياري (من الكرواتية إلى الألبانية) والأستاذ محمد م. أرناؤوط (من الألبانية إلى العربية). سلسلة عالم المعرفة الكويتية.
- 3 - مقال للدكتور أحمد داود في عدد التاسع عشر من نيسان سنة 1990 لصحيفة الثورة حول (جغرافيا الرحلة التوراتية لإبراهيم الخليل بين الحقيقة والتزوير).
- 4 - مقال للأستاذ حسان عزت في عدد الثلاثين من أيار عام 1992 لصحيفة الثورة حول (اللغة المصرية القديمة لغة عربية).
- 5 - مقال للدكتور فهمي خشيم عميد مركز. اللغات الليبي، في العدد (57) من مجلة الشؤون العربية، حول اللغة المصرية واللغة العربية.
- 6 - كتاب (مقدمة في فقه اللغة العربية) للأستاذ لويس عوض، وقد صدر عام 1980.
- 7 - مقال للدكتور جورج كنعان في عدد اليوم الرابع من كانون الثاني عام 1990، في صحيفة الثورة، حول علاقة التاريخ بظهور الكتابة.
- 8 - كتاب (أبجدية جبيل) للعالم موريس دونان. دار الكتب العلمية ببيروت 1945.
- 9 - قصة الكتابة العربية، كتاب للأستاذ إبراهيم جمعة، أصدرته دار المعارف للطباعة والنشر بمصر سنة (1947).
- 10 - مقدمة كتاب (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر) لابن خلدون. الجزء الأول، لجنة البيان العربي، القاهرة 1957، الطبعة الأولى.

- 11 - فتوح البلدان للبلاذري (ت 279 هـ). دار الكتب العلمية ببيروت 1983.
- 12 - مقال حول كتاب الفهرست لابن النديم، للأستاذ عبد الحميد حمودة، في العدد الثامن لمجلة الناشر العربي بطرابلس الليبية عام سبعة وثمانين وتسعمائة وألف.
- 13 - نشرة جامعة دمشق 1972، حول الحلقة التي أقامتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في جامعة الدول العربية، بالتعاون مع الحكومة السورية.
- 14 - مقال للأستاذ عبد العزيز النهاري حول (الببليوغرافية علم وفن) في العدد السابع من مجلة الفیصل السعودية، في عدد أيار وحزيران 1980.